استقبال الهرمينوطيقا في النقد المغاربي المعاصر

الدكتـور: يوسـف نقماري
جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف- الجزائر

الملخص:
إنّ أول عمل دشّن لحظة استقبال المفهوم الغربي(الهرمنيوطيقا) Herméneutique في الخطاب العربي المعاصر يتمثل في دراسة كان قد أنجزها نصر حامد أبو زيد بعنوان (الهرمنيوطيقا ومعضلة تفسير النص)، وقد نُشرت هذه الدراسة أول مرة سنة 1981 في مجلة فصول المصرية.
الكلمات المفتاحية: الهرمنيوطيقا؛ الخطاب؛ النص؛ النقد الأدبي.

شكَّلت الدراسة –التي قام بها نصر حامد أبو زيد - زمن ظهورها حدثاً تأسيساً في الخطاب النقدي العربي، وفي التعريف بنظرية غربية وتقديم أبرز أصولها ومبادئها إلى النقاد العرب، أما في النقد المغاربي فنذكر على سبيل المثال لا الحصر:

1- سعيد علوش وهرمنوتيك النثر الأدبي:

يُعَدّ سعيد علوش من المهتمين بقضايا الحداثة وما بعد الحداثة في الأدب والنقد والترجمة، وفي الدراسات المقارنة وانفتاحها على فضاءات جديدة من الدرس المقارن، وتدل مؤلَّفاته على تنوع اهتمامه وثراء تجربته؛ فهو فضلاً عن صفته باحثاً أكاديمياً، مختصاً في مجال الأدب الحديث والمقارن، جمع أيضاً بين الإبداع والنقد في مجال الرواية تحديداً، ويبدو أن كتابه (هرمنوتيك النثر الأدبي) بطابعه التنظيري يمثِّل مقدمة لمشروع نقدي في هذا المجال.

يرصد علوش في كتابه هذا مظاهر التنوع في الصورة الاصطلاحية التي ظهر فيها المفهوم الغربي للهرمونتيك/ التأويل، وهذا التنوع في اقتراح المقابلات العربية ناتج بالضرورة عن تنوع في الأطر المعرفية، والمرجعيات النظرية والفكرية، التي يصدر عنها أصحابها، بل إن المصطلح المقترح، ولاسيما في صيغته الدخيلة، ينطق ويفصح بالمرجعية الأجنبية، التي تأثر بها الناقد علوش، فمن مرجعية أنجلوساكسونية مع (نصر حامد أبو زيد) بالمشرق العربي، إلى مرجعية فرانكوفونية مع سعيد علوش بالمغرب العربي.

لقد اختار علوش أسلوب الدخيل في صياغة مقابل عربي للمصطلح الغربي (هرمونيتيك)، وكتب هذا المصطلح بالعربية وبالصورة الصوتية، التي ينطق بها في اللغة الفرنسية (هرمنوتيك)،وهو أسلوب يعتمده الباحث بكثرة في نقل مصطلحاته الغربية، يقول: " يعني جوهر المصطلح (الهرمنوتيك) مجموعة من المعارف والتقنيات التي تسمح باستنطاق الرموز، واكتشاف معانيها "[1].

وقد استعمل هذا المصطلح بصيغتين، فراوح بين (هرمنوتيك)، و(هرمنوتيكي) في متن الدراسة، وقرن هذا المصطلح بعبارة (النثر الأدبي) على سبيل الإضافة الدالة على التخصيص، فغدا عنوان الكتاب (هرمنوتيك النثر الأدبي)، موحيا منذ البدء بنزعة صاحبه إلى محاولة تأسيس نمط خاص من الهرمونوتيك، يتعلق أساساً بمجال النثر الأدبي، ومن هنا كان في الحقيقة مصدر الإغراء في العنوان.

انبنى الكتاب على تقديم أَسند له الباحث عنوان (في المكونات الهرمنوتيكية للنثر الأدبي)، وعلى تسعة فصول:(في الكلمات والأشياء) – (في الحقيقي والمنهجي) – (في الظاهراتي والإبستيمولوجي)- (في الدائرة الهرمنوتيكية) – (في ثنائية السخرية) – (في جدلية اللعب والرمز) – (في الألفة والغرابة)– (في التأويل والتفسير) – (في المستنسخات الهرمنوتيكية).

أراد الناقد علوش أن يكون تقديمه لهذا الكتاب (تقديماً على غير التقديم) إثارة وتشويقاً وخروجاً عن المألوف والعادة، فقد سلك في كتابة هذا التقديم مسلكاً (إبداعياً)، فبدأ صوت الناقد/ المؤسس فيه خافتاً أمام صوت المبدع، المغامر بفعل الكتابة وفيها والانفعال بها، وإنْ كنّا لا نشك في أنّ الباحث له حس إبداعي وروائي لا مراء فيه، حيث تتحول لغة الكتابة من دورانها على ذاتها إلى لغة نقدية مفهومية، تحاول تحديد موضوعها وضبط أطرها ومجالاتها، يقول في هذا السياق:" ويبحث الهرمنوتيكي في التأويل، الذي يطبع مشاكل ومناهج الدرس الأدبي في علاقته الوثيقة بنقد النصوص وقراءتها وفهمها في مرحلة أولى، وتجاوز مجرد نقد النصوص وتأويلها إلى تكوين نظرية عامة للإنتاج "[2].

وإذا رجعنا إلى كتاب (معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة) للمؤلّف نفسه، نجد مصطلح (الهرمنوتيكية)، أي بإضافة تلك اللاحقة (ياء النسبة مع تاء التأنيث)، في حين أنه استعمل (هرمنوتيك) في مسرد المصطلحات الذي وضعه في خاتمة كتابه، يعرِّف الباحث الهرمنوتيكية:" بأنّها طريقة تأويل وتخريج تدرس المبادئ المنهجية في التعامل مع النصوص وتفكيك رموزها، وكشف أغوارها في التقليد القديم(...)، أما الهرمنوتيكية حديثا، نظرية تأويل رموز لغة أدبية بوصفها كُلاًّ لعناصر ثقافية "[3].

فما يلفت الانتباه مما تقدَّم من حد الهرمنوتيك وتعريفها، أو الهرمنوتيكية، هو تأكيد علوش على أنْ يجعل الهرمنوتيكية بوصفها نظرية في التأويل، يتعلق موضوعها بالرموز مطلقاً وباللغة الأدبية تخصيصاً بوصفها هي الأخرى لغة فنية رامزة، ونلحظ في هذا التخصيص الأول أنه يجعل النص الأدبي/ أو اللغة الأدبية هي الموضوع المباشر للهرمنوتيك، وتخصيصاً ثانياً يتحول فيه النص الأدبي إلى النص النثري تحديداً.

ومن هنا يأتي عنوان الكتاب (هرمنوتيك النثر الأدبي)، فالباحث وجد في قول بولريكورP. Ricœur .سنداً نظرياً، يشرع بمقتضاه ما ذهب إليه من محاولة، لتأسيس هرمنوتيك خاصة، بل أخص إن شئنا الدقة أكثر.

لقد حرص الناقد سعيد علوش وهو يؤسِّس لهرمنوتيك النثر الأدبي على ضبط بعض الأصول الغربية، على أن يضيف نعت النثري أو النثرية على أغلب عناوين فصول الكتاب، والتي كانت تختزل بعض قضايا التأويل، ومبادئه حسب خصوصية كل نظرية، أو بالأصح حسب ما يومئ بتلك الخصوصية، فغدت أغلب فصول الكتاب معنونة في متن الدراسة، بل إن أغلب المنظرين الذين ذكرهم الباحث وحشدهم حشداً، من شلايرماخر Schleiermacher، و دلتاي Dilthey، و هوسرل Husserl، و هايدجر Heidegger، و غادامير Gadamer، و ريكور P. Ricœur وغيرهم، والذين حضروا من خلال مقولاتهم عن تأويل النص مطلقاً، أو الفن أو الرمز، أو من خلال جهازهم المفهومي والاصطلاحي، الخاص كالكاتب والتجربة والتاريخ.

وفي محاولة ضبط مفهوم الهرمونتيك وموضوعه، باعتبار أن ذلك يعد وجهاً من وجوه التأسيس النظري، عمد الباحث في ذلك إلى ترجمة بعض الفقرات لبعض المنظرين الغربيين، وما ذهب إليه من تمييز بين التفسير والتأويل، وتأكيد على التكامل بينهما في التعامل مع النص النثري أو التجربة النثرية ليصير التفسير تفسيراً نثرياً يهتم ببيان الأثر الذي يخلفه مقصد التعبير، وموجَّهاً للقارئ إلى بعض التأويلات.[4]

2- عبد العزيز بومسهولي و الشعر والتأويل:

يتناول عبد العزيز بومسهولي (أدونيس) بقراءة تأويلية في كتابه الموسوم بعنوان: (الشعر والتأويل- قراءة في شعر أدونيس-)، حيث يشير إلى أنّ أدونيس يبلغ ذروة تفجير الرؤيا الاستبطاني، بخلقه لكَوْن شعري متميز سمته التشاكل، حيث تتداخل في تجربته الفريدة تشكيلات خطابية متعددة بعضها يمكث في التراث الصوفي الإنساني القديم، تراث النفري على وجه الخصوص، وبعضها الآخر يطفح من رؤية معاصرة، ومن خلال هذا التشاكل، يتمكن الشاعر من اختراق الخطابين معاً: القديم والمعاصر، ليس قصد التموقع داخلهما، وإما لبناء شعرية حداثية متمكنة فعلاً من تأسيس حقيقي لإقامة فعلية في العالم، وذلك من خلال لغتها الشعرية الخصبة التي تحمل أصوات الوجود الإنساني الحي المتعددة، كما تعبِّر عن موقف إبداعي ضمني يتخلل رؤيا /الأسرار الشاعر ويمنحها فرادتها وحداثتها في الآن نفسه.[5]

ويقوم بومسهولي بدراسة تطبيقية تأويلية على شعره (أدونيس)، فيرى أن الرهان الصوفي قد تجسَّد عند أدونيس في ديوانه الأخير من خلال قصيدتي (البرزخ)، و(في حضن أبجدية ثانية)، العنوان في القصيدة الأولى (البرزخ) سليل ومفهوم مركزي في تصور الصوفية للوجود، وعليه بنى نظريته في الخيال، وقد اكتسب هذا المفهوم قدرة تحليلية في كتابات الصوفية، تغري بإعادة بنائه في سياقات متعددة، وهذا ما خبره أدونيس في تسمية ديوانه (البرزخ)[6].

وبالتأويل يستدعي شعر أدونيس الظاهرة الروحانية، فقد استحضر المتصوفة مثل (النفري) فحققت القصيدة لديهما ذلك المزيج بين العقل والعاطفة، فتوافر لديه ما لدى هذا الصوفي، فتمّ استدعاؤه في القرن العشرين بلغته الحوارية، ومفاهيمه المتنامية عبر الاستعارة والمجاز وكل ما هو محسوس، و باستهلالته التي تنطوي على الغرابة والدهشة، كما يحتج أدونيس بعباراته التصويرية، فثمة دخول لصوره الرمزية، شعريته، اقتباساته الذائعة في دواوينه[7].

وهكذا فالشاعر في قصيدة (البرزخ) يستدعي من لب الخطاب المعاصر إشكالية الأسماء والأشياء، وتحضر أصوات العصر في ثنايا العبارة الشعرية الأدونيسية، لكن تكمن براعة أدونيس في التوصُّل إلى رؤية جدية، مكنته من الدخول فعلاً إلى مغامرة التسمية، بما هي بحث عن هوية الأشياء التي تقيم في العالم، القصيدة (البرزخ) مفتاحها الذي يمكن من دخول عتبة الأشياء وأسمائها، ويعبر هذا المفتتح عن علاقة نوعية تكشف عن دور الذات الوظيفي في التوغُّل داخل أبعاد تشكِّل امتداداً حضارياً للوجود، هي الأساطير والحلم والتاريخ.

وهكذا تطبيقياً وبالقراءة التأويلية، يصل الباحث بومسهولي إلى أنّ أدونيس بدوره مؤوِّلا، وإذا كان أدونيس مؤولاً لتراث النفري الصوفي في عدد من قصائده، كما هو الشأن في قصيدة (في حضن أبجدية ثانية)

فإنّ في قصيدته الرائعة (البرزخ) هو قارئ مغامر يقتحم الرؤيا المعاصرة، وينفذ داخل أصواتها ورؤاها الاختلافية ليكشف التداخل الإجناسي، ودوره في تعميق التجربة الشعرية التي لا تكتفي فقط بالاستفادة من تلك الأصوات، وإنما لبلورة صوت الشعر الذي يحفر مادته داخل هذا التشاكل الخطابي بشرط أن يتوافر على حُسْن استشرافي لا يقف عند حدود الخطابات السابقة، وإنما يتجاوزه باعتباره ضمير المستقبل المجهول[8].

وخصَّصت مجلة البلاغة المقارنة «ألف» (الدار البيضاء) أحد أعدادها (للهرمنيوطيقا والتأويل)، بوصفها الفرع المعرفي الذي يتناول التفسير والتأويل، قديمه وحديثه في آن واحد، ففي الماضي كانت تدور حول النصوص المقدسة، أما الآن فأصبحت تعنى بنوعيات مختلفة من النصوص، ويتمثل إحياء هذا الفرع المعرفي في انتشار نطاق فاعليته من نصوص مقدسة بعينها إلى أنواع كثيرة من الخطاب العلماني، وذكر محرر العدد المذكور أنّ تاريخ الهرمينوطيقا في مجال الثقافة العربية، ما يزال في دائرة الدور الاجتماعي، ونادراً ما اهتمت بتحليل تعقيد عملية الفهم وأبعادها[9].

ومن الكتب التي تناولت الهرمينوطيقا نذكر على سبيل المثال:

- إيكو أمبرتو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة وتقديم: بنكراد سعيد، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2004.
- شرفي عبد الكريم، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007.
- بن بوعزيز وحيد، حدود التأويل-قراءة في مشروع أمبرتو إيكو النقدي- منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008.
- بوزيد بومدين، الفهم والنص-دراسة في المنهج التأويلي عند شليرماخر و ديلتاي- منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008.
- بارة عبد الغني، الهرمينوطيقا والفلسفة - نحو مشروع عقل تأويلي - منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010.
- معافة هشام، التأويلية والفن عند هانس جورج غادامير، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010.

المصادر والمراجع:

بارة عبد الغني، الهرمينوطيقا والفلسفة - نحو مشروع عقل تأويلي- منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008.

بعلي حفناوي ، إشكالية التأويل ومرجعياتهفي الخطاب العربي المعاصر، مجلة الموقف الأدبي، دمشق،ع440، 2007.

أبو هيف عبد الله، النقد الأدبي العربي الجديد في القصة والرواية والسرد، اتحاد الكتاب العرب، سوريا، 2000.

الهوامش:

[1]- بارة عبد الغني، الهرمينوطيقا والفلسفة - نحو مشروع عقل تأويلي- منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008، ص:89.

[2]- بعلي حفناوي ، إشكالية التأويل ومرجعياتهفي الخطاب العربي المعاصر، مجلة الموقف الأدبي، دمشق ،ع440، 2007، ص:29.

[3]- المرجع نفسه، ص: 89.

[4]- ينظر: بعلي حفناوي ، إشكالية التأويل ومرجعياتهفي الخطاب العربي المعاصر، ، ص:30.

[5]- ينظر: بعلي حفناوي ، إشكالية التأويل ومرجعياتهفي الخطاب العربي المعاصر، ص:32.

[6]- ينظر: المرجع نفسه، ص:33.

[7]- ينظر: نفسه، ص:33.

[8]- ينظر: المرجع السابق، ص:33.

[9]- ينظر: أبو هيف عبد الله، النقد الأدبي العربي الجديد في القصة والرواية والسرد، اتحاد الكتاب العرب، سوريا، 2000، ص:267.